الأدب المهـــجري الأنجلوفوني
"كتاب خالد" لأمين الريحاني و"النبي" لجبران أنموذجا

د/ مديحة عتيق
كليـــة الآداب و اللغـــات
جامعة سوق أهراس

الملخص :

الأدب الأنجلوفوني العربي هو مجموع النصوص الإبداعية التي ألّفها بالإنجليزية مبدعون من أصول عربية، تحاول هذه الورقة أن تسلّط الضوء على ظهور الأدب الإنجلوفوني العربي الذي تعود جذوره إلى أوائل القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية مع ظهور "**كتاب خالد**" لأمين الريحاني و"**النبي**" لجبران، ستناقش هذه الورقة الموضوعات وجماليات ومقروئية هذين العملين الإبداعيين.

Abstract:

Arab Anglophone Literature is the body of writings written in English by authors of Arab origins. This paper is an attempt to shed light on the emergence of Arab Anglophone literature which dated back to the early 1920's in USA with the appearance of Ameen Rihani's « **The Book of Khalid** » and Gibran's « **The Prophet** » **;**the paper will discuss the aesthetics , thematic topics and the readership of both works.

تمهيد:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم نماذج عن ظاهرة أدبية بدأت تفرض نفسها في الساحة العالمية إبداعا، ونشرا، وقراءة، ودراسة، ونعني "الأدب العربي الأنجلوفوني"، ورغم أنّ هذه الظاهرة الأدبية تمتدّ جذورها إلى قرن من الزمان إلا أنّها لم تحظ باهتمام جادّ في الوسط الأكاديمي سوى في الفترة الأخيرة أي منذ عقد أو يزيد قليلا ، ولعلّ مردّ ذلك الاهتمام عوامل سياسية وأدبية ولغوية نذكر منها :

سياسيا :أحداث 11سبتمبر 2001 التي دفعت لا إراديا بالعرب إلى الواجهة الإعلامية حيث خلقت تلك الأحداث فضولا غربيا لدراسة نفسية العرب وثقافتهم ، وحرّكت لدى الآخر رغبة قويّة لاستكناه أغوار الذين روّعوا أمريكا في عقر دارها ، ولم تكن هناك طريقة لتفهّم العربي أفضل من قراءة أدبه خاصّة المكتوب بالإنجليزية لتجاوز عقبة اللغة وتداعيات الترجمة .

أدبيا : تراكم عبر قرن من الزمان مادة أدبيّة معتبرة من الأدب الأنجلوفوني المكتوب بأقلام كتّاب من أصول عربية، وخاصّة في مجال الرواية – ديوان العصر– فيمكن أن نذكر بعض الروائيين على سبيل المثال لا الحصر : أمين الريحاني، جبران خليل جبران،جبرا إبراهيم جبرا، خالد مطاوع، هشام مطر، جمال محجوب، ليلى أبو العلا، فادية فقير، مهجة قحف، أهداف سويف، رابح علم الدين ،...الخ، وقد كتب هؤلاء عن قضايا كثيرة أهمّها قضية الشرق والغرب، الهوية ، العلاقة مع الآخر، اندماج العربي في المجتمع الجديد (الغرب) ، المهاجرون، اضطهاد المرأة، جرائم الشرف، ...وفرضت هذه المادّة الأدبية بتراكميّتها وبإشكالاتها نفسها على القارئ الغربي والناقد الغربي خاصّة ذلك الذي يهتمّ بالدراسات ما بعد الكولونيالية..

لغويّا: لم يكن الاهتمام بالأدب العربي الأنجلوفوني بمعزل عن الاهتمام بالأدب الأنجلوفوني الذي أنجزه كتّاب من أصول غير إنجليزية وتحديد من أبناء المستعمرات البريطانية القديمة كالهند ، وجزر الكاريبي، ومناطق من أفريقيا حيث اتّخذ هؤلاء الإنجليزية – بوصفها جزءا من الميراث ما بعد الكولونيالي – وسيلة تواصلية لمخاطبة الآخر بلغته، ولنقل تبعات المرحلة ما بعد الكولونيالية إلى القرّاء في لندن ونيويورك وسيدني...الخ، ولا بأس أن نعرّف في البداية بالأدب العربي الأنجلوفوني..

الأدب العربي الأنجلوفوني:

هو مجموع النصوص الأدبية التي كتبها بالإنجليزية كتّاب ذوو أصول عربية، يقيم معظمهم في أمريكا أو بريطانيا أو أستراليا.

تمتدّ هذه المدوّنة زمنيا على مدى قرن كامل بوتيرة بطيئة أوّ ل الأمر لكنّها تسارعت في العقود الأخيرة بشكل لافت للنظر، فقد" شهد العقد الماضي حضورا متزايدا لكتّاب عرب ساهمت أصواتهم وبراعتهم الفنّية في إعادة تشكيل خارطة العالم الأدبي الأنجلوفوني، وبنوع من الجدال، وبشكل قابل للأخذ والرّد، اعتبرت أعمالهم آخر موجة لخطّ طويل من الكتابة العربية الأنجلوفونية بدأ مع جبران وتواصل مع أهداف سويف في القرن العشرين ، اختار الكثير من الكتّاب والكاتبات أن يبدعوا بالإنجليزية بدل العربية، يدفعهم إلى ذلك رغبتهم في التوجّه بكتاباتهم إلى مجتمعاتهم الجديدة : الولايات المتحدة الأمريكية، أستراليا، بريطانيا، وكندا، أو لرغبتهم في الوصول سريعا إلى مكانة عالمية دون أن يعرّجوا على وسيط الترجمة "(1)

لقد نقلت هذا المقتطف كاملا – رغم طوله– لأنّ يسلّط الضوء على نقاط كثيرة، أهمّها :

* هناك تنوّع جغرافي بالنسبة إلى تواجد الأدباء العرب الذين يكتبون بالإنجليزية، فبعضهم يقيم في أمريكا على غرار أدباء المهجر (أمين الريحاني، وجبران خليل جبران، ..)،ومهجة قحف، ونعومي شهاب ناي،. رابح علم الدين..، وبعضهم مقيم في بريطانيا أمثال : أهداف سويف، ليلى أبو العلا، فادية فقير، جمال محجوب، هشام مطر، ...وبعضهم مقيم بأستراليا، وهم قلّة بسبب بعد هذه القارّة على الوطن الأمّ، ولقلّة الروابط الثقافية والسياسية بين أستراليا والعرب، ..

* كانت الإنجليزية بالنسبة إلى هؤلاء ذات فائدة مزدوجة, فهي تساهم في شهرتهم لأنّها اللغة الأولى عالميا ،وهي وسيلة طيّعة وشفّافة سهّلت تواصل الكتّاب مع قرّائهم الجدد.

* والطريف في الأمر أنّ هؤلاء الكتّاب أتقنوا الإنجليزية إلى درجة فاجأت النقاد الغربيين أنفسهم، تقول ليلي المالح في كتابها الرائد "أصوات عربية في الشتات" " لعلّ الكثير من ذلك الهتاف { للأدب العربي الأنجلوفوني} يعود – على ما يبدو ــ إلى شعور النقّاد الإنجليز بالمفاجأة حين اكتشفوا أنّ العرب أيضا يبدعون بالإنجليزية (...)فقد أشيد بالكتّاب العرب الأنجلوفونيين لتمرّسهم في اللغة الإنجليزية"(2)

لا شكّ أنّ ما كُتب من روايات على مدى قرن كان بدوافع متغيّرة، وحول مواضيع متباينة، وموجّه لقرّاء متغايرين، وأُنجِز في ظروف سياسية وثقافية خاصّة ، وسيكون من العبث محاولة تغطية تلك المدوّنة السّردية الضخمة في هذه الدراسة، لذا سأقف عند نموذجين محدّدين لشهرة أحدهما وريادة الآخر، يتعلّق الأمر ب"كتاب خالد" (*The Book of Khalid*) لأمين الريحاني، و"النبيّ" (*The Prophet*) لجبران خليل جبران.

<u>الأدب المهجري الأنجلوفوني:</u>

تتراكم السّرديات العربية الأنجلوفونية منذ العقد الأوّل من القرن العشرين إذا انطلقنا من أوّل رواية إنجليزية كتبها أديب عربي، وهي "كتاب خالد" للأديب اللبناني الأمريكي أمين الريحاني، وهو أحد الشباب العربي المثقفين الذي دفعتهم ظروف كثيرة إلى الهجرة نحو أمريكا أو بريطانيا حيث تعلّموا الإنجليزية، و بدؤوا يكتبون بها شعرا ،و مسرحا، وقصّة، ورواية، ولعلّ أهمّ ظروف الهجرة ما يلي:

* النفوذ العثماني في المنطقة العربية سياسيا وفكريا وثقافيا ممّا دفع بالمنطقة ــ خاصّة الشرق العربي ــ إلى دوائر الجهل والتخلّف والبؤس، وانعكس ذلك طبعا على المجال الأدبي الذي انحصر في دائرة مغلقة من التكرار، واجترار القديم، والتركيز على المتوارث والعاديّ.

* الهيمنة الاستعمارية التي بدأت منذ القرن التاسع عشر، وامتدّت إلى معظم الدّول العربية، فزادت في تردّي الأوضاع على جميع المستويات.

دفعت هذه الظروف بعض الشبان العرب الطموحين إلى الهجرة نحو الغرب بحثا عن حرية الفكر، وتحسين المستوى المعيشي، واستزادة الرّصيد المعرفي.ومن هؤلاء الشباب:أمين الريحاني، جورج عطيّة، جورج أنطونيوس، جبران ...الخ، ويمثّل هؤلاء أوّل دفعة للكتّاب "الأنجلو– عرب" حسب تعبير إدوارد سعيد ومعظم هؤلاء "لبنانيون، مسيحيون، يعيشون خارج لبنان، وبدل أن يقوموا بدور الوسيط بين الثقافة الغربية والعرب، قاموا بدور الوساطة بين الثقافة العربية والغرب"(3)

ويصفهم هشام شرابي – كما يذكر جيوفري ناش– بأنّهم " متحمّسون لخلق العالم وإعادة تشكيله، متحفّزون ذاتيا(Self- motivated) ، دهاة، ذوو طاقة عالية، أصحاب ميول عقلانية،وثورية ممّا قادهم إلى التمرّد ضدّ الأفكار المطلقة، والماورائية– الآخرية (...)

هؤلاء المثقفون العرب {المسيحيّون}أظهروا ميلا قويّا نحو الثقافة الأوروبية، وبدوا ينظرون إلى أنفسهم على أنّهم حاملو مثل وقيم الطبقة البورجوازية الأوروبية"(4)

ولعلّ هذه الذهنية المنفتحة على الغرب هي التي ساعدت هؤلاء المثقفين الشباب على الاندماج سريعا في مجتمعاتهم الجديدة (أوروبا وأمريكا) وإن لم يخل الأمر من بعض الاصطدامات وخيبات الأمل كما ستكشف لنا أوّل رواية عربية بالإنجليزية"كتاب خالد" لأمين الريحاني الذي سنقف الآن عند أهمّ محطّات حياته وأهمّ إنجازاته:

أمين الريحاني: (Ameen Rihani) (1867-1940) :

مثقف أمريكي لبناني من مواليد 24 نوفمبر 1876، وتوفي يوم 13 سبتمبر 1940، ذو نشاطات سياسية وثقافية كثيرة، وهو أحد الوجوه البارزة في المهجر، ومن مؤسسي الرابطة القلمية،و أحد منظّري القومية العربية.

- سافر إلى نيويورك عام 1888، أدخله أبوه المدرسة في نيويورك لكنّه سرعان ما أخرجه منه لكي يتولّى دفتر الحسابات في شركته الجديدة(...) ولاحقا أقنع والده كي يعيده إلى المدرسة لينتظم في دراسة الحقوق.

- أصبح أمين الريحاني مواطنا أمريكيا عام 1901.

-أصيب أمين الريحاني بالتهاب رئوي، فعاد إلى لبنان عام 1897 طلبا للاستشفاء، وهناك تعلّم اللغة العربية و قرأ الشعر العربي القديم"(5)

مؤلفات أمين الريحاني:

كان الريحاني غزير الإنتاج، كتب 29عملا بالإنجليزية و 26 عملا باللغة العربية،تعلّق بالأدب، والترجمة، والشعر، والسياسة، والتاريخ، والثقافة، والفكر، وهذه بعض مؤلفاته بالعربية والإنجليزية:

بالعربية:

-الرّيحانيات (1910).وهو كتاب أظهر قدرات الكاتب الفكرية والرؤيوية.

بالإنجليزية:

- **The Lily of A-Ghor:** (زنبقة الغور) رواية بالإنجليزية، أعاد كتابتها بالعربية،تصف اضطهاد المرأة اثناء النفوذ العثماني.

-**The Path of Vision:** (ممرّ الرؤيا) مجموعة مقالات حول الشرق والغرب.

-**Chants of Mystics:** (أغاني صوفية) وهي مجموعة قصائد إنجليزية.

-**Al-lozoumiates** : (اللزوميات) وهي ترجمة ديوان اللزوميات للمعرّي إلى الإنجليزية.

- **Jihan**(جيهان) : رواية بالإنجليزية حول دور المرأة الشرقية أثناء الحرب العالمية الأولى.

نشاطاته السياسية:

- زار أمين الريحاني وزوجته (برتا) البابا بينيديكت الخامس عشر عام 1917الذي كان متحرّقا لإنهاء الحرب العالمية الأولى، وإيجاد حلّ سلمي وعادل للأطراف المتناحرة.

- وفي العام نفسه، التقى الريحاني تيودور روزفلت – الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية للتباحث حول القضية الفلسطينية.

- في عام 1919 طلب من الريحاني أن يكون ممثّلا للمصالح العربية في مؤتمرHague للسلام.

-في عام 1921 كان الممثّل الوحيد للشرق الأدنى في مؤتمر تخفيف التسلّح في واشنطن دي سي."(6) كان لأمين الريحاني روح عالمية نحو السلام، والحوار الحضاري، والتقارب الثقافي بين الشرق والغرب.

كان لثقافته المزدوجة أثر طيّب عل الثقافتين العربية والإنجليزية على حدّ سواء، فقد أثرى الأدب العربي بأجناس أدبية جديدة على غرار، وفنّ الرواية، وفنّ المقال.

طوّر الريحاني فنّ المقال الصحفي " تراوحت المواضيع التي عالجها بين الفنّ التشكيلي الأمريكي الحديث، ورقص الباليه الروسي (...) وقد طوّر فنّ المقال في الأدب العربي الحديث وجعله ذا تأثير على تطوّر النثر العربي الحديث، وفنّ الصحافة، وكان لثقافته الأمريكية الدور الحاسم في ذلك لأنّ محتوى مقالاته وشكلها مستمدّان من الشاعر رالف والدو إمرسون (R.W.Emerson) وهنري داديدا (H.Dadida) الذين قرأ لهما الريحاني كثيرا في مراهقته."(7)

أثرى الريحاني الثقافة الإنجليزية من خلال ترجمته أشعار امرئ القيس وعمر الخيّام ولزوميات المعرّي إلى الإنجليزية، وحرص الريحاني على أن يقارن المعرّي بكبار الشعراء الأمريكان والأوروبيين وذلك لكي يقرّب أفكار الشاعر العباسي القديم من أذواق

القرّاء الأمريكان، ولكي يحقّق فكرته الإنسانية عن التقارب الروحاني بين الشرق والغرب.

ولكنّ العمل الأدبي الذي يعنينا في هذا السياق أكثر من غيره هو "كتاب خالد" التي تعدّ ــ باتفاق النقاد ــ أوّل رواية عربية أنجلوفونية، فما موضوعها؟ وما خصائصها اللسانية؟ وإلى من توجّه بها الريحاني؟ وكيف استقبلت؟ وما هي أهمّ الانتقادات التي وجّهت إليها؟ ومدى تأثيرها في تأسيس وتأصيل الرواية العربية الأنجلوفونية؟

كتاب خالد (The Book of Khalid)(1911):

أوّل ما يلفت انتباهنا أنّ الريحاني سمّى عمله "كتاب" وليس "رواية" ومردّ ذلك في رأيي أنّ مصطلح "الرواية " كان غريبا آنذاك في الوسط النقدي العربي، إذ لم تهضمه الطبقة المثقفة بعد فما بالك بأوساط القرّاء العاديين، وخاصّة إذا وضعنا في الحسبان أنّ هذا العمل سبق تاريخيا رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل التي ظهرت عام 1913 أي أنّ هناك فارق سنتين بين أوّل رواية عربية بقلم عربي وأوّل رواية بقلم إنجليزي، وسنعقد مقارنة بين الروايتين بعد حين.

حبكة " **كتاب خالد**" بسيطة ، فهي تروي قصّة شاب مسيحيّ مثقف هاجر بلده لبنان مع صديقه المسلم شكيب هربا من الاضطهاد السياسي، وتوجّها إلى نيويورك، وبقدر ما يُعجَبان بازدهارها التكنولوجي فإنّهما يصطدمان بالقيم الماديّة التي تتحكّم العلاقات الإنسانية، فيفزع البطل، ويعود أدراجه إلى بلده حيث يصطدم مجدّدا بالمشكلات السياسية والصراعات الطائفية والتخلّف الاقتصادي.

تقوم الرواية على جملة من الثنائيات المتناقضة يحاول الريحاني أن يقلّص المسافات بينها كثنائية (الشرق/الغرب) و(المادّة /الرّوح) و(الإسلام /المسيحية) و(المرأة /الرّجل) وكان الريحاني يخلق هذه الثنائيات كي يتجاوزها ، يبنيها ليهدمها، ويثبّتها كي يلغيها.

كان "خالد" ناقل أفكار المؤلّف، والناطق الرسمي لقيمه، وقناعاته حتّى أنّ كثيرا من النقاد رأوا في هذه الرواية نوعا من السيرة الذاتية و إن لم يعترف الريحاني بذلك ، فالبطل ــ شأنه شان المؤلف– مثقّف، لبناني، هاجر إلى أمريكا، وعاش فيها ردحا من الزمن، وبقدر ما أُعجِب بالحرية والرفاهية التي تتيحها، وبالعلوم التي تنتجها، فقد اصطدم بماديّتها وغياب الوازع الديني والقيم الروحية لدى أفرادها.

لم يكن البطل –والمؤلف أيضا– منبهرا إلى حدّ العمى بالحضارة الغربية، وما زاد من "رزانته" أمام ألق هذه الحضارة هو ثقته بعظمة تاريخه وحضارته الشرقية وأصالة أسلافه، وهذا ما جعله يقف من الغرب موقفا ندّيا أو على الأقلّ جعل آماله وتفاؤله في تقريب الشرق والغرب من بعضهما البعض كبيرا.

يقول خالد : "بدأت أمّتي لتوّها تتكلّم، وأنا صوتها المصطفى، اشعر أنّني إذا لم أجب، إذا لم آت إلى هنا { يقص أمريكا} سوف تكون بكماء إلى الأبد"(8)

كان خالد ــ ومن خلفه الريحاني– يتّخذ موقف الناقد الرزين للحضارة الغربية دون حقد أو شعور بالنقص، لذا حين وصف الأمريكيين بأنّهم "عبدة الدولار" لم يكن يائسا بل كان يرجو إصلاح حالهم " غُيّر احتياجات ومصدر إلهام الأمريكان وسوف تتغيّر عبادتهم، ووثنيّتهم القومية وحتّى حكوماتهم، صدّقني { يخاطب صديقه شكيب} التغيير قادم، الناس تعبت من آلهتها {يقصد الدولار}،ومن كلّ شيء، سوف يأتي وقت لا يعاني فيه الإنسان في أمريكا من كونه باحثا أو عاشقا أو مدافعا عن الدولار"(9)

يؤمن الريحاني بأنّ أمريكا تستحقّ أن تكون دولة قيادية، تلجأ إليها دول العالم لالتماس المشورة والعون والتوجيه وحتّى الانتماء. لم يكن الريحاني يدعو إلى الذوبان في الهويّة الأمريكية وإلغاء الخصوصية الثقافية بل كان يشجّع على الحوار الحضاري والتبادل الثقافي بين الشرق والغرب لذا لم يأل جهدا في الافتخار بحضارته الشرقية والتنويه بما تستطيع أن تقدّمه لخلق حضارة إنسانية موحّدة تحت قيادة أمريكا "ففي "**كتاب خالد**" يركّز المؤلف على الماضي الثقافي الغنيّ، ويمجّد أسلافه الفينيقيين ، مؤسسي حضارة عظيمة في حوض المتوسط (...) وكان المؤلف يبحث عن تأسيس استمرارية بين الماضي والحاضر (...) هذه العودة إلى الماضي ترتبط بالبحث عن هويّة– إشكالية, فردية وجماعيّة "(10)

كان خالد يحلم بأن تتأسّس الإمبراطورية المثالية " وكان يحلم بأن أيضا بالسوبرمان الذي يجمع في داخله روحانيات الشرق، وفنون أوربا، وعلوم أمريكا"(11)

لم تكن المهمّة سهلة أمام الريحاني / خالد، فقد واجههما جدار فولاذي اسمه "المادّة" سبّبت لكليهما أزمة نفسيّة حادّة، فقد عانى الريحاني اغترابا حضاريا داخل أمريكا دفعه إلى أن يعود إلى لبنان حيث اعتزل الناس ستّ سنوات.

عبّر الريحاني عن خيبة بطله وصدمته في مواقف كثيرة ومن خلال تمثيلات رمزية كثيرة، فحين كان خالد وصديقه شكيب في غرفتهما البائسة وهي تفيض بمياه قنوات الصرف، حاول الشابّان عبثا ضخّ تلك المياه، ورأى البطل في ذلك المشهد تعبيرا رمزيا عمّا يحدث في أمريكا التي تفيض شوارعها وقصورها بقاذورات المادّة ، وبدا له أنّ البشر تعيش بأجسادها فقط في الأعالي أمّا الرّوح فإنّها تقبع في قاع المدينة وقاع المجتمع وقاع الهرم الحضاري.

لم يصطدم خالد بماديّة الغرب وتكالبه على الثروة فحسب بل خاب أمله أيضا في التقريب بين الشرق والغرب ، وعبّر الرّيحاني عن ذلك من خلال فشل علاقات خالد مع المرأة الأمريكية، فقد فشل عاطفيا حين تركته حبيبته في الخلاء وحيدا و فشل حضاريا حين إقناع السيّدة Gitsfory في الانضمام إليه لتأسيس إمبراطورية عربية أركانها تكنولوجيا أمريكا، وفنون أوربا، وروحانيات الشرق . كان الريحاني يحاول أن يقنع القارئ الأمريكي بأنّ الشرقيّ قادر على استيعاب منجزات الغرب وتمثّلها في مسيرته الحضارية "كان الريحاني يطالبه ضمنيا باحترام شعبه"(12)

باختصار في "**كتاب خالد**" "نُظِر إلى أمريكا بعيون مهاجر غير دنيوي، سعيد بعيشه في قاع المجتمع، يكسب قوته بعرقه، يأكل طبق العدس {البلدي} ، يملك رصيدا في البنك، وكان الخطر الذي يتهدّد براءته الشرقية قادما من الثراء الغربي الفاحش في المال والجنس"(13)

كان "**كتاب خالد**" رواية رياديّة في شكلها ومضمونها، لا يتعلّق الأمر بأسبقية ظهورها زمنيا فحسب بل في جرأتها في الأطروحات والقضايا التي طرحتها، وفيما استحدثته من صيغ شكلية جريئة " **(كتاب خالد)** الذي صوّر رسوماته جبران هو رواية تجريبية تميّزها حداثة وجرأة تغيب عمليّا عن النصوص التي أتت لاحقا ، كان يجب أن ننتظر William Betti Blatty في روايته السير ذاتية " أيّ طريق إلى مكّة يا جاك؟" (Which way to Mecca, Jack) 1957 و Carl Gibety و" مخطوط للنبيّ" (Blueprint to Prophet) لكي نحظى بمثل هذه التعقيدات البنيوية والتداخلات النّصيّة واللسانية"(14)

يدلّ هذا القول على أنّ ريادة "**كتاب خالد**" تاريخيا وجماليا على مستوى الأدب العربي الأنجلوفوني، ولكن يحول هذا دون مقارنتها بالرواية العربية ، ونعني رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل التي ظهرت عامين بعد "**كتاب خالد**" أي عام 1913.فإذا كان "**كتاب خالد**" أوّل رواية عربية أنجلوفونية فإنّ" زينب" هي أوّل رواية عربية خالصة،وهذا ما نبّه النقّاد إلى عقد مقارنة بين النّصين، فقد انتبهوا إلى أنّ الرّوايتين تشتغلان على تيمات مشتركة أو على الأقلّ متقاربة كصراع التقاليد ضدّ الحداثة، وأثر اضطهاد المجتمع على المثقّف الذي يحسّ بالاغتراب، وتعسّف العادات،..

ففي "أوّل رواية عربية {نعني "زينب"}تتجلّى العوامل الغربية بشكل سطحيّ حيث ترد الإشارة إلى تدخّل الإنجليز بشكل عابر دون أن يؤثّر ذلك على مجرى الأحداث، لكنّه يركّز {المؤلّف} على تعسّف العادات والتقاليد وتحكّمها في مجرى أحداث القرية، وخاصّة في قضايا الزّواج (...) ويبدو هيكل أسير رومانسية في نظرته للعلاقة بين الجنسين على نحو ما نجد في قصص جبران القصيرة"(15)

تتقاسم الروايتان تيمة تمرّد البطلين – خالد وحامد– على الأوضاع القائمة والتقاليد المتحجّرة ضدّ كلّ تغيير أو تقدّم ممّا يُشعِر البطلين باغتراب داخل الوطن /القرية بسبب ضيق المكان وعجزه عن استيعاب طاقتهما التنويرية ، فالروايتان تصوّران البطل الرومانسي الحالم والثائر في آن واحد، وإن بدا حامد ــ بطل زينب ــ سلبيا و أنانيا على نحو ما،وبدا خالد أكثر انفتاحا وحماسا واهتماما بإحداث التغيير وصنع الفارق .

أثّرت هذه الفوارق في ثقل الروايتين حيث بدأت الرواية العربي الأنجلوفونية أكثر ثقلا دلاليا،و غنى موضوعاتيا من نظيرتها العربية و لا أدلّ على ذلك من تعدّد الموضوعات التي عالجتها إضافة إلى التي تقاسمتها مع "زينب"،ومن ذلك اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب، وتصوير حياة المهاجرين العرب في أمريكا،و موقفهم إزاء ماديّتها وبهارج حضارتها، ونظرة الغرب إلى الشرق والعكس، بالإضافة إلى الصراعات الطائفية التي تمزّق أوصال الشرق .

إذا كان هيكل متأثّرا بجان جاك روسو فإنّ الريحاني كان متأثّرا بفولتير وخاصّة في روايته (كانديد) " فقد كان "**كتاب خالد**" ــ مثل(كانديد) نصّا هجائيا حيث يخوض شابّ حالم منفيّ عن بلده سلسلة من التجارب المخيّبة التي تعلّمه رؤية رزينة للحياة، وكان

واضحا منذ البداية أنّ الريحاني كان يضع فولتير نصب عينيه، فحين قبّل كانديد ابنة البارون (يشاع أن تكون ابن عمّه) طرده عمّه من الجنّة الأرضية , وفي صورة مقاربة ومقلوبة لهذا المشهد فإنّ خالد يقع في غرام ابنة عمّه ويطرده أبوها خارج المنزل عندئذ يعتزم رحلة ليس بعيدا عن الجنّة الأرضية بل بحثا عنها"(16)

وهذا يعني أنّ الريحاني أخذ من فولتير الطابع المغامراتي لحياة البطل حيث يسافر، ويحلّ، ويرتحل، في أماكن كثيرة ومناطق مجهولة، وتواجهه سلسلة من المغامرات والتجارب القاسية والمفيدة ، ولكنّ الجنّة الأرضية التي يسعى إليها بطل الريحاني لم تكن الإلدورادو بل العالم الجديد / أمريكا .

ولم يكن فولتير هو الصوت الغربي الوحيد الذي نسمعه في "**كتاب خالد**"، فقد كان هناك أصداء كتّاب غربيّين آخرين "كان كارليل هو النموذج الأكثر حضورا بالإضافة إلى كتّاب أمريكيين أمثال إمرسون، ووايتمان، كما دخل الريحاني في محاورة مع روائيين عديدين نذكر منهم ديكنز، وتنيسون، وبلزاك، وشكسبير، وبين (Paine) و أرنولد(Arnold) ومونتانيي (Montaigne) و(Suinburne) وديدرو، وباسكال، وإبسن،وهوميروس، وماركس، وسبنسر، .."(17)

وبالعودة إلى رواية (زينب) فإنّها تتقاطع مع "**كتاب خالد**" في طبيعة نظرتهما إلى الاستعمار /الغرب ، فقد أشارت (زينب) إليه بشكل عابر دون أن يترك أثرا ملموسا على مجرى الأحداث وتكوين الشخصيات، وكذلك الأمر بالنسبة إلى **(كتاب خالد)** حيث لم يُشِر الريحاني إلى الغرب بوصفه مستعمِرا إلا بشكل عابر، فلم ينتقد حضوره وتدخّله في شؤون الدول العربية، ولم يحمّله وزر تخلّف الشعوب العربية اقتصاديا وثقافيا، ولم يحاسبه على تناقض مبادئه ، ففي الوقت الذي تدعو فيه أمريكا إلى حرّية التعبير والتفكير فإنّها تحرم غيرها من هذا الحقّ .

نقول هذا الكلام رغم أنّنا أوضحنا سابقا أنّ الريحاني لم يكن منبهرا بالحضارة الغربية، ولم يكن يستشعر بالنقص إزاءها وهذا ما جعله يكوّن صورة رزينة وحكما هادئا حولها، لكنّه تجاهل كون الآخر ذاتا استعمارية تنشر الخراب أينما حلّت ، وكانت هذه النقطة أهمّ الانتقادات التي وجّهت إلى "**كتاب خالد**" بالإضافة إلى انتقادات أخرى..

لقد وقعت هذه الرواية في ما يقع فيه أيّ عمل رياديّ يفتقد الخبرة والنماذج التي يمكن أن يحتذي بها، ومن ذلك غلبة النبرة الخطابية في نصّه وخاصّة في حوارات خالد مع صديقه شكيب حيث كثيرا ما يتحوّل الحوار إلى موعظة أخلاقية ، أحادية الصوت مليئة بالإرشادات والنصائح مما يثقل كاهل النّص ، ويضحّي بجمالياته الفنّية لحساب الدرس الأخلاقي، ولعلّ مردّ ذلك أنّ الريحاني لم يتخلّص من النزعة الخطابية التي لا زمت السرد العربي طويلا، أضف إلى ذلك أنّ الريحاني مصلح اجتماعي ، وكاتب مقالات صحفيّة فلا عجب أن تؤثّر النزعة الإصلاحية على أسلوبه في الكتابة.

لا تحول هذه النقيصة دون حضور مزايا فنّية كثيرة في الرواية، ومن ذلك تجاور استعارات اللغة العربية وكناياتها ومجازاتها مع نظيرتها الإنجليزية، فــلم تقتصر محاولة الريحاني في الجمع بين الشرق والغرب على المستوى الموضوعاتي فحسب بل تعدّاه إلى المستوى اللساني وهذا ما يشير إلى أنّ قضية اللقاء بين الشرق والغرب تلبّست الرواية شكلا ومضمونا، وهذا ما جعل الرواية سردا إنجليزيا بنكهة عربية ،وستنتقل العدوى إلى النصوص اللاحقة.

لذا يرى سهيل البشيري أنّ "**كتاب خالد**" رغم كلّ أخطائه ومثالبه" لم يأخذ حقّه من الاهتمام المستحقّ (...) فالتأثير الذي أحدثه على الكتّاب الأنجلو العرب الذين سيأتون لاحقا أكثر أهمّية من نجاحه الذاتي أي باعتباره رواية ، هذا الجنس الأدبي الذي لم يستشعر الريحاني ضمنه براحة كبيرة" (18) و الأمر ــ كما ذكرنا سابقاــ يتعلّق بصعوبة البدايات وتداعيات الريادة.

ونختم حديثنا عن الرواية بما اتفق عليه النقاد، فهي رواية" تؤسّس لنزعة أدبية جديدة نحو الحكمة والنبوّة، وتسعى إلى أن تصالح بين الروح والعقل، وبين الشرق والغرب سعيا منها إلى أن توضّح وحدة الأديان وتتمثّل وحدة الكون"(19)

مهجريون آخرون:

لم يكن أمين الريحاني الكاتب الأنجلو عربي الوحيد في أمريكا، بل كان هناك غيره من المثقفين العرب الذي عرفوا بالمهجريين حيث جمعوا أنفسهم في حلقات ومنظمات أدبية أهمّها "الرابطة القلمية" "Pen- League" " وصار هؤلاء يعرفون مع مرور الزمن بـــ "العرب الأمريكان "American Arab" وهذه العبارة الوصفية" لا تحيل إلى هوية موحّدة

للعرب، فقد كان منهم المسلمون، والمسيحيون،واليهود أو الذين لا يعتنقون أيّ ديانة، وهناك أفراد قادمون من ثقافات و أوطان مختلفة، ومن المحتمل أنّ بعضهم من الحواضر وآخرون من البادية، بعضهم متديّنون و آخرون ملحدون، منهم الحداثيون،ومنهم التقليديون"(20)

ومع كلّ هذه الاختلافات فقد كان يجمعهم هاجس مشترك وهو إثبات وجودهم في عالم الأدب والكتابة ، فلا ننسى أنّهم أمّة بيان،" وفي إطار سعيهم للشهرة وإيجاد مكانتهم داخل الحلقات الأدبية الأمريكية فإنّ السؤال الذي يفرض نفسه هو ما إذا كان هؤلاء المثقفون قد لبسوا عباءة الشرق لرفع مبيعات كتبهم وليحظوا بالقبول عبر تصوير أنفسهم في صورة العباقرة الجذّابين "Charismatic Genius " أو أنّ فكرتهم حول المصالحة الطيبة بين الشرق والغرب مجرّد إسهام ضمن فكر اختزالي ومتآلف حول روحانية الشرق الغارقة في طلاسمها المذهلة وعقلانية الغرب الديناميكية"(21)

وأيا كانت نواياهم ــ الشهرة أو المصالحةــ فإنّ أشهر الأسماء بينهم هو جبران خليل جبران (1883– 1931) الذي عرف في الأوساط الأمريكية ب "خليل جبران " Khalil "Gibran

ورغم أنّه لم يكتب رواية أنجلوفونية إلا أنّنا لا نستطيع تجاوزه بسبب شهرة كتابه "النبي" :"The Prophet"

كتاب "النّبي" مجموعة 26 قصيدة نثرية تشكّل مجمعة خطبة ألقاها خطيب خياليّ يدعى "المصطفى" في مكان وزمان مجهولين، يقدّم هذا الخطيب نصائح إلى جمهوره عن أمور الحياة المختلفة: الحبّ، والفرح، والحزن، والعمل، والجمال، والصحّة، والبيت، والمال، والموت، ...الخ ، فكتاب "النبيّ" ــ شأن تعظم أعمال جبران ــ " يتعاطى موضوعات روحانية ورؤيوية مركّزا على الصور/ المجازات المسيحيّة،و لكن وفق نظرة ترنو إلى الحقيقة الكونية والرؤية الصوفية للحبّ البشري"(22)

لا يتقوقع جبران في هذا الكتاب داخل ديانته المسيحية بل نجده ينفتح على الإسلام والبوذية، واليهودية، لذا لم يكن "الله" في تصوّره كائنا ما ورائيا منتميا إلى ديانة معيّنة بل هو جوهر روحاني تتقاسمه كلّ الديانات.

يعدّ هذا الكتاب من أكثر الكتب مبيعا عبر العالم، إذ لا يزال يطبع إلى الآن بملايين النسخة في كلّ طبعة " متجاوزا بذلك مبيعات أكابر الشعراء الأمريكان من وايتمان إلى ت. س إليوت"(23)

ولقد تنبّأت ماري هاسكل ــ صديقة جبران ــبشهرة "النبيّ" منذ بداية صدوره حيث قالت في رسالة وجّهتها له يوم نشر كتابه" سيكون واحدا من أهمّ **كنوز الأدب الإنجليزي**، سوف نفتحه أثناء شعورنا بالظلام والضعف كي نجد أنفسنا ثانية، وكي نعثر عل السماء والأرض داخل أنفسنا، ولن تتعب الأجيال منه"(24)

وتستوقفنا عبارة "كنوز الأدب الإنجليزي " فهل كان "**النبي**" من الأدب الإنجليزي؟ كان جبران عربيّ الأصل، لبنانيّ الجنسية، ورغم أنّه عاش ثلاثة أرباع حياته في أمريكا، ورغم أنّه كتب "**النبيّ**" بالإنجليزية إلا أنّ الغربيين لم يعدّوه يوما كاتبا أمريكيّا حتّى" أنّ The Heath Anthology of Literature لم تضمّ اسمه إليها رغم أنّ هذه الموسوعة كانت ضخمة إذ جاءت في خمسة آلف صفحة جمعت في مجلّدين كبيرين لم يحتويا صفحة واحدة عن جبران" (25)

ورغم رواج كتاب"**النّبي**" إلا أنّه لم يكن ذات تأثير هام على حركة الشعر الحديث- المكتوب بالإنجليزية تحديدا- فلم يأت بجديد يذكر، ويكفي مقارنة بسيطة بين تأثيرات جبران وت. س. إليوت لنستشعر الفرق، نموقع "**النبي**" في مكانه المناسب، فإذا كان إليوت أحدث ثورة شعرية عصفت بتقاليد الشعر الإنجليزي لغويا وجماليا وحتّى موضوعاتيا ، ويكفي أن نشير الآن إلى فكرة "المعادل الموضوعي" و"الغموض" فإنّ جبران" يصعب اعتباره مبدعا ــ بهذا المعنى ــ فالثورة التي أحدثها شعريا كانت على مستوى اللغة العربية وليس الإنجليزية، فلغة" **النبيّ**" ليست إبداعية أو ثورية على النحو الذي نجده عند إليوت، والأكثر من ذلك أنّه كان كحامل الفحم إلى نيوكاستل (أو حامل الماء إلى حارة السّقائين)، فكانت إبداعاته ومجازاته التوراتية تباعد بينه وبين النقاد الأمريكيين"(26) بالإضافة إلى ما ذكرناه ، كان إليوت يدعو إلى الموارية والترميز، ويؤكّد على أنّ الشعر "يجب أن يكون إيحائيا، ولمّاحا، أو مراوغا لكنّ "النّبي" احتوى صيغا جاءت مخالفة لكلّ هذه التوصيات"(27)

كانت شهرة جبران حدثا استثنائيا بالنسبة إلى الكتّاب العرب الأمريكيين سواء في عصره أو بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة حيث كان يكتب مع زملائه في ظروف معادية يمكن أن نلخّصها ــ مؤقّتا ــ في العناصر التالية:

-صعوبة النشر، إذ قليلا ما يتاح لهؤلاء فرصة وصول أعمالهم إلى المطبعة.

-إنّ كلمة "استشراقي" (Orientalist) تحيل في الأذهان إلى ذكرى سيّئة عن الحروب الصليبية.

-وسيكون للصراع العربي ــ الإسرائيلي ــ لاحقا ــ أثر في تكوين صورة سلبية عن العرب يصعب على القرّاء الأمريكيين تجاوزها"(28)

كان نبيّ جبران الشجرة التي غطّت غابة الأدب المهجري ممثّلا في أعمال الريحاني، وجورج أنطونيوس، وجورج عطيّة، لدرجة أنّه غطّى ريادة "**كتاب خالد**"، ولكن شهدت العقود الأخيرة اهتماما خاصّا بهذا الرواية الرّيادية وبأعمال الريحاني عموما حيث " نُشِر الكثير من مخطوطاته المهملة، وظهرت طبعات كثيرة لأعماله التي نفذت، وعُقِدت حوله المؤتمرات وكُتِب عنه مقالات صحفية، وأقيمت احتفالات و تكريمات على شرفه في لبنان وفي الخارج تتضمّن تمثالا نصب في جامعة (Tufts) في بوسطن عام 2004."(29)

الهوامش:

1- Oryang (Wen-Chin) : Literature, Interiority and violence; New Voices in Arab Diaspora, The Middle East in London, Oct 2009, p03.
2- Al- Maleh (Leila) : Arab Voices in Diaspora; Critical Perspectives on Anglophone Arab literature, ed; Radope Bv, Amsterdam, New York, 2009,p10
3- Nash (Geoffrey) : The Arab Writer in English; Arab Themes in Metropolitan Language, (1908-1958) , Sussex Academic Press,1998,p17
4- Nash (Geoffrey) : The Arab Writer in English; Arab Themes in Metropolitan Language..p18.
5- Ameen Rihani : www.wikipedia.com
6- Ameen Rihani : www.wikipedia.com
7- Bushrui (S heil) : Tha Arab- American cultural Relation in the 20th century , the works of Ameen Rihani ; with special reference to his writing in English http://www.alhewar.com/Bushrui_Rihani.html
8- Rihani (Ameen) : The Book of Khalid **in** Bushrui (Suheil) : Tha Arab-American cultural Relation in the 20th century , the works of Ameen Rihani ; with special reference to his writing in English

9- Rihani (Ameen) : The Book of Khalid
10- Joudot (Jacqueline) : Les Ecrivains d' Expression Anglaise u Proche-Orient Arabe (Thèse de Doctorat d' Etat) Université Lyon III Lumière (Département d' Etude du Monde Anglophone), 2003, p716
11- Ameen Rihani : www.wikipedia.com
12- Knippling (Alpana Sharma) : New Immigrant literature in USA , A Sourcebook to Our Multicultural Literary Heritage, Library of Congress Cataloging in Publication Data , USA, 1996,p06
13- Nash (Geoffrey) : The Arab Writer in English; Arab Themes in Metropolitan Language, p28
14- Joudot (Jacqueline) : Les Ecrivains d' Expression Anglaise u Proche-Orient Arabe, p 715.
15- Nash (Geoffrey) : The Arab Writer in English; Arab Themes in Metropolitan Language, p26.
16- Knippling (Alpana Sharma) : New Immigrant literature in USA , A Sourcebook to Our Multicultural, p05
17-Knippling (Alpana Sharma) : New Immigrant literature in USA , A Sourcebook to Our Multicultural Literary Heritage,p06
18- Bushrui (Suheil) : Tha Arab- American cultural Relation in the 20th century , the works of Ameen Rihani ; with special reference to his writing in English..
19- Ameen Rihani : www.wikipedia.com
20- Rega (Joseph) Layton (Rebecca) Arab- American and Muslim Writers, Chelsea House, New York , 2010, p07
21- Al –Maleh (Leila) : Arab Voices in Diaspora, p03.
22- Rega (Joseph) Layton (Rebecca) Arab- American and Muslim Writers,p13
23- Boullata(Issa) et al : Tradition , Modernity and Postmodernity in Arabic Literature ; Essays in honor of Issa J Boullata, ed Kamel Abdel- Malek & Wael Hallak, by Kominklijka Brill, NV, Leiden, The Nethrlands,2000, p 321
24- Rega (Joseph) Layton (Rebecca) Arab- American and Muslim Writers,p19
25- Boullata(Issa) et al : Tradition , Modernity and Postmodernity in Arabic Literature, p322.
26- Boullata(Issa) et al : Tradition , Modernity and Postmodernity in Arabic Literature, p322.
27- Boullata(Issa) et al, IBID, p323.
28- Knippling (Alpana Sharma) : New Immigrant literature in USA ,p.04
29- Al –Maleh (Leila) : Arab Voices in Diaspora, p10.